الفتنة في القرآن الكريم

د. يحيى محمد يحيى
أستاذ مساعد قسم البلاغة والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

دارت كلمة « الفتنة » ومشتقاتها في القرآن الكريم ستين دورة في ثمان وخمسين آية . والناظر لتلك الكلمة على هدى وارشاد من معاجم اللغة وقواميسها يجد أن جماع معناها يدور حول الابتلاء والامتحان والاختبار .

فالفتن في اللغة معناه الاحتراق . والفتنة قد تطلق على المحنة . وأصلها مأخوذ من قولك : فتنت الفضة والذهب اذا أذبتهما بالنار لتميز الردىء من الجيد .

أما صلة الفتنة بالمحنة : فالمحن في اللغة هو الضرب بالسوط ، والمحنة الخبرة ومحنته وامتحنته بمنزلة خبرته واختبرته وبلوته وابتلته . والممتحن هو المصفى المهذب المخلص من قولهم : محنت الفضة اذا صفيتها وخلصتها بالنار .

وقد تطلق الفتنة ويراد بها المال أو الأولاد أو الكفر أو اختلاف الرأى أو الظلم أو الضلال والاثم أو الفضيحة أو القتل او العذاب(١).

وبالنظر الهادىء فيما قالته المعاجم نجد أن الفتنة من الفتن وهو

---

(١) راجع في ذلك أصل المادة في القاموس واللسان .

الاحراق بالنار ثم تفرعت اطلاقاتها على كل ما أشبه ذلك الفتن حسا كان أو معنى • اذ الذى هو فى محنة وبلاء : من مرض أو غيره تحس نفسه مرارة العيش وسآمة الحياة ، بينما الذى يعذب أو يقتل فى سبيل الله والدين ، يعيش ذلك الفتن بحواسه وجوارحه قبل نفسه بل ربما عاشه بجوارحه دون نفسه اذا ما كانت نفسه عالية ودينه قويا يستصغر العذاب ويستعذب الايذاء فى سبيل رضا ربه ومجازاته خير الجزاء •

وفى قيام اطلاقاتها المتنوعة على أصل أصيل هو الاحراق بالنار، لفى ذلك أوضح دليل وأقوى اشارة الى كل ما يطلق عليه فتنة ، اذ لابد فيه من عامل الايذاء أو الاثارة أو اللفت الشديد للانتباه حتى يصل فى عنفوانه الى درجة الاحراق بالنار أى التـأثير الذى لا يستهان به ولا يستطاع الصبر عليه والا فلا ينطبق عليه معنى الفتنة ولا يصح اطلاقها عليه •

كما أن مدلولها اللغوى يشير الى الغاية من وقوعها ، وهو الوصول الى النتيجة المبتغاة من وراء ذلك الفتن ، من تمييز الجودة من الرداءة ومن كشف على هذا المعدن المفتون بالابقاء فى نار المحنة ولهيب الاختبار وسعار البلاء •

وكان القرآن ــ كعادته ــ شاملا فى تناوله للفتنة وصورها وجريانها فى شتى وقائع الحياة وتقلباتها •

فتارة نراه يعرض للون من الفتنة يبتغى من ورائه تبصير الناس بما سنه وجعله قائما فى حياتهم ليحيا من حى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ، وحتى يعيشوا حياتهم يقظين منتبهين غير خزايا ولا متبلدين، وبذا يستقبلون أحكام ربهم وسننه فى كونه ــ من رغد وضيق وصحة ومرض ونحوهما ــ استقبال المؤمن الملتزم بالشكر على الرخاء والصبر على البلاء •

وتـــارة نرى القـــرآن الكـــريم يعرض للون من الفتنـــة يبتغى من ورائه كشف الشر والأذى ، ليحذر من التمادى فيه والاستمراء له • وبذا يبسط جانبا كريما من الرحمة الالهية بالعباد حتى يعيشوا فى هدأة وطمأنة بعيدين عن الأذى والقذى ومحفوظين عن التمويهات والنزهات•

وتارة نرى القرآن الكريم يعرض للون من الفتنة متبادل بين أهل الحق وأهل الباطل،مبتغيا من وراء ذلك دحض الباطل وأهلـــه وتثبيت الحق وأهله • وبذا ينشر رحماته بالفريقين : فيحث الخارجين العصاة على التوقف والاشفاق على أنفسهم من بطشه وفتكه واستدراجه لهم وخسرانهم الدنيا والآخرة • ويغذى ــ على الجانب الآخر ــ أهل الحق المتمثلين للشرع بكل ما يملأ جانبهم فألا حسنا وآمالا كبارا فى ربهم الغنى والكريم ، ويفعم مشاعرهم سعادة وبهجة فقد حيزت لهم الدنيا بحذافيرها ، وتترقب قدومهم الآخرة بسخائها المديد وكرمها التليد •

وأخيرا ، نرى القرآن الكريم يعرض للون من الفتنة يفـــوق كل مدلول لها فى اللغة ، ويخالف كل صورة لها فى الواقع ، مبتغيا من ذلك التحذير من الوقوع فيه والاستسلام له والعون عليه بما أمر الله وشرع فالقتـــل أو التعـــذيب هو أقصى وأعـــلى صور الفتن لكن هناك فتنـــة أكبر وأشد •

وكذا ، المغريات والمفسدات ظاهرة القسمات واضحة المعالم،بحيث يضيق الانسان بعد شدها وجذبها له ويبدأ العراك بينهما ، لكن المال وهو شـــقيق الروح كما يقـــول البعض ، والأولاد ، وهم الامتـــداد الطبيعى المضمون لكل نفس تعمل وروح تجد وانسان ينتج ، كيف يدير المرء حوارا بينه وبين ماله وولده أيكونان عونا له أم يدا عليه ؟

انها لفتنة وأى فتنة !! •••

ولكن ، كيف يتحرك مصباح البلاغة وكيف تتوجه اشعاعاته لتجلى جنبات بحث متشعب كهذا ؟

بادىء ذى بدء ، نقول ان البلاغة هى العلم والفن الذى يمتص الرحيق من النصوص ويعالجه ويتمثله ثم يصيغه فى قوالب تبرز حلاوته وتكشف عن بداعته فى لفظ أنيق ومعنى شيق وفق ضوابط مأنوس بها وسياقات فى الكلام مرجوع اليها ومأخوذ بها •

ونترك تبيان الجل الكبير فى هذا العمل لمجابهة النصوص والتعامل معها عند عرض كل جهة من جهات البحث • ونكتفى هنا بالاشارة الى خيوط مهمة تتحرك البلاغة فى البحث على هداها وتتآزر مع جنباته المتلونة فى كل سياق •

ونبادر فنقول : ان المتأمل فى اطلاقات الفتنة فى هذا البحث ، يجدها من قبيل الحقيقة تارة ، ومن قبيل الاستعارة تارة أخرى ومن قبيل المجاز المرسل تارة ثالثة • فكأنها تقلبت على الجهتين المتكاملتين لورود أى حدث أو تصوير أى واقعة •

فالفتن فى اللغة هو الاحراق ، والاحراق : لسع مؤثر فى المحروق لا يحتمل ولا يستطاع الصبر عليه ، فحينما ترد الفتنة بمعنى الاحراق أو القتل أو التعذيب تصرف آنذاك الى الحقيقة • وهذا أقسى صورها وأبلغ معنى فى ايقاعها •

وحينما تطلق ويراد بها شبيه بها فى المحن والابتلاء فهى استعارة آنذاك وجمالها كامن فى التصوير المقرب والتشبيه المجسد •

وحينما تطلق ويراد بها أمر ليس بينه وبينها صلة من مشابهة، لكن هناك رابطة من نوع معين أو تلازما ما ، فالكلام على المجاز المرسل حينئذ • وجمال المجاز المرسل هو فى عرضه متكئا على تلك الرابطة التى

لا تقيد بمشابهة بل تنطلق وتتحرر وتعتمد على أدنى ملابسة بشرط أن تكون الرابطة قائمة متخيلة والاعتبار ملموسا متذوقا ، لكنها فى مرتبة تلى مرتبة المجاز بالاستعارة الذى يذوب فيه الشبيه مع الشبيه ويختلطان ويصير كل منهما كصاحبه •

وبعد هذه المقدمة ها نحن نقبل على النصوص فى جهات البحث الأربع لنتعرف على كل سياقاته ومراميه •

وجهاته الأربع هى :

جهة التبصير والتصبير والحث على التمسك بما أمر الله تعالى • وآياتها خمس وعشرون •

جهة كشف الشر والتحذير من التمادى فيه • وآياتها خمس عشرة آية •

جهة الفتن المتبادل بين الحق والباطل • وآياته اثنتا عشرة آية •

جهة الفتن الذى يفوق معناه فى اللغة ويخالف صورته المألوفة فى الواقع وآياته ست فقط •

وواضح أن مجموع الآيات ثمان وخمسون وان تكررت اللفظة مرتين فى كل من الآية ٤٩ توبة ، ٤٠ طه فيكون ذكر اللفظة قد بلغ الستين ولكن فى ثمان وخمسين آية •

« الجهة الأولى من البحث »

وهى جهة التبصير والتصبير والحث على التمسك بما أمر الله تعالى ، وقلنا ان آياتها خمس وعشرون آية •

ونقصد بالتبصير أن الفتنة جارية فى خمس عشرة آية بمعنى الاختبار والامتحان الذى غايته تبصير الخلق بأنهم ما خلقوا ليتركوا

بل توضع لهم الاختبارات ويجابهوا بالامتحانات حتى يتمحض المؤمن ويكشف غير المؤمن • وأن ذلك أمر عام لا يستثنى منه أحـــد ولو كان نبيا مكرما • فليتبصر الكل وليتيقظ الجميع وليكونوا على استعداد دائم وذكر مستمر وعبادة حية نابضة والا وقع الابتلاء وحدث ما لا يحمد عقبـــاه •

ونقصد بالتصبير أن الفتنة جارية فى العشر الآيات المكملة للخمس والعشرين ، وبمعنى الفتنة المجعولة أى الصـــائرة أزلا ، من الله بحيث لا يتخلف سهمها عن مفتونها ولا يستطيع المفتون من أثرها فكـــاكا ، وما عليه الا أن يتصبر ويتجلد حتى يشمله ربه بلطفه ورحمته،يستوى فى ذلك النبى المرسل والانسان العادى ، كل بقدره وما يليق به •

ولنبدأ بالشق الأول لهذه الجهة ، وهو منحنى التبصير والاعـــلام والارشاد وآياته الخمس عشرة تتحرك على النحو التالى :

آيتان فى حق نبى مكرم هو داود عليـــه السلام وولده ســـليمان والآيتان هما (٢٤ ، ٣٤ من سورة ص) •

آيتان ، بلاؤهما وقع اثر استنتاج فاسد هما (١٥٥ من الأعراف ، ٤٩ من الزمـــر) •

خمس آيات ، وقع الاختبار فيها اثر غفلة من الناس واســـتدراج من الله لهم وهى (١٢٦ من التوبة ، ١٣١ من طه ، ١١١ من الأنبيـــاء ، ١٧ من الدخان ١٧ من الجن) •

ست آيات ، وقعت الفتنة فيها بمعنى الاختبار والامتحان العـــام للناس أجمعين لتمحيص المؤمن ورفع درجاته وانتكاس المكذب وردعه لعله يعـــود الى ربه • وهى (١٠٢ البقرة ، ٣٥ من الأنبياء ،٢،٣،١٠ من العنكبـــوت) •

وبالنظر فى الآيات ومقولات المفسرين حولها نجد أن :

أ ــ آيتى ٢٤ ، ٣٤ من سورة (ص) هما قول الله تعالى : « قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب » • وقوله « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب » •

والآية الأولى خاصة بداود والفتنة فيها تعنى الابتلاء فى التروى أثناء الحكم فهو قد تعجل وصدق أحد المتخاصمين قبل أن يسأل الآخر لكنه تنبه بعد ذلك واستغفر وأناب • ومما ذكره الكشاف فى ذلك قوله « وظن داود أنما فتناه ــ ابتليناه لا محالة •• » ويضيف : « وما كان ذنب داود الا انه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسألته »(٢) •

ويلحظ أبو السعود أن الظن فى الآية مستعار للعلم الاستدلالى لما بينهما من المشابهة الظاهرة أى علم بما جرى فى مجلس الحكومة • ويلحظ كذلك أن القصر فى « أنما فتناه » ، معناه أنما فعلنا به الفتنة لا غير(٣) • وفى ذلك ما يرشد الى توجيه الاختبارات وعدم استثناء أحد من خلق الله ولو كان نبيا فقد يوقعه الله فى أمر ليس الغاية منه سوى احداث الفتنة معه ليرى كيف يتصرف ثم يلجأ الى ربه عقب ذلك فيزداد عبادة وقربا ويكون بذلك قدوة ومثلا لبقية الناس • كما يلحظ أبو السعود فى خروره راكعا أن ذلك من قبيل المجاز المرسل اذ تسمية السجود ركوعا من تسمية الشىء باسم مبدئه أو جزئه وكذا لو سميت الصلاة بالركوع(٤) وفى ذلك ملمح الطاعة وعلامة الانابة • ومن جميل ما ذكره صاحب الظلال •• أن القاضى عليه ألا يستثار ولو عرضت

---

(٢) ص ٣٧١ جـ ٣ •

(٣،٤) راجع ذلك فى ص ٢٢١/٢٢٢ جـ ٧ •

القضية أمامه بصورة صارخة ، وعليه ألا يتعجل وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للادلاء بقوله وحجته • فقد يتغير وجه المسألة كله أو بعضه وينكشف أن ذلك كان خادعا أو كاذبا أو ناقصا • ويضيف « عند هذا تنبه داود الى أنه الابتلاء »(٥) •

أما الآية (٣٤) والخاصة بسليمان فيرى الزمخشرى أن فتنته هى أن ولد له ولد فقالت الشياطين : إن عاش لم ننفك من السخرة فسبيلنا أن نقتله أو نخبله فعلم ذلك فكان يغدوه فى السحابة فما راعه الا أن ألقى على كرسيه ميتا فتنبه على خطئه فى أنه لم يتوكل على ربه فاستغفر وتاب(٦) • ومما يحيى جانب الدور البلاغى للنظم القرآنى لاسيما فى قصصه ، أنه جانب يهتم بالتركيب الوارد ويتأمله ليضع منه نفثات وعبرات لا تغيب ولا تبعد عن طابع السياق والتركيب دون الدخول فى حكايات المفسرين وأخبارهم • فالآية تحكى اخبار الله بفتن سليمان • ثم تربط الفتن بالاستغفار والانابة اللائقة بجلال النبوة التى تتيقظ عند الغفلة وتجأر الى ربها حتى يغفر فيغفر ويكرم ، «ثم أناب»• ومن جميل ما ذكره صاحب الظلال والاشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد وعن الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان •• كلتاهما اشارتان لم تسترح نفسى لأى تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما » •

ويحسم الأمر فى ايجاز بليغ قائلا : « وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبى الله سليمان (س) فى شأن يتعلق بتصرفاته فى الملك والسلطان كما يبتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم

---

(٥) ص ٣٠١٨ جـ ٢٣ •
(٦) ص ٣٧٤ جـ ٣ وكذا أبو السعود ص ٢٢٦ جـ ٧

ويبعد خطاهم عن الزلل ، وأن سليمان أناب الى ربه ورجع وطلب المغفرة واتجه الى الله بالدعاء والرجاء(٧) .

ب — والآيتين الأخريين ترد الفتنة فيهما بمعنى الاختبار والبلاء وذلك اثر استنتاج فاسد . والآيتان هما ١٥٥ من الأعراف ، ٤٩ من الزمر . وهما قول الله تعالى « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وايای أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » . وقوله تعالى فى سورة الزمر « فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وبالنظر فى تلك الآيتين نجد أن مقولات المفسرين فى الاية الأولى تتركز حول معنى المحنة والابتلاء ، لكلمة الفتنة وأن ذلك سيعقبه ثبات وهدى للمؤمنين ، واضلال وسخط لغير المؤمنين .

يقول الزمخشرى : « ان هى الا فتنتك — أى محنتك وابتلاؤك حين كلمتنى وسمعوا كلامك فاستدلوا بالكلام على الرؤية (وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) . وهذا الاستدلال الفاسد فتنتهم وأضلهم »(٨) . ويلمح بلاغة المجاز فى جريان لفظة الفتنة ، وأنها مجاز مرسل علاقته السببية حيث أطلق السبب وأراد المسبب وهو الاضلال فيقول « وجعل ذلك اضلالا من الله وهدى منه لأن محنته كانت سببا لأن ضلوا واهتدوا فكأنه أضلهم بها وهداهم على الاتساع فى الكلام »(٩) .

---

(٧) ص ٣٠٢٠ ج ٢٣ .

(٨،٩) ص ١٢١ ج ٢ .

والآية تحمل فى طياتها ما يكشف عن مشاعر نبيهم موسى (س) تجاه ربه اللطيف العطوف وتجاه قومه الذين استوجبوا منه الاعتذار أمام ربه عما صنعوه ثم حكاية لفهمه أقدار وأحكام الله فيما ينزله على عباده يقول فى ذلك أبو السعود ، وتتابع : « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا أى الذين لا يعلمون تفاصيل شئونك ولا يثبتون فى المداحض » •

ويضيف : « والهمزة اما لانكار وقوع الاهلاك ثقة بلطف الله عز وجل أو للاستعطاف على معنى لا تهلكنا » • « ويضيف معتمدا على الفهم البلاغى للنص قائلا : « ان هى الا فتنتك — استئناف مقرر لما قبله واعتذار عما صنعوا ببيان منشأ غلطهم •

ويضيف كاشفا عن ادراك النبى ، وقوله تعالى : « تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » اما استئناف مبين لحكم الفتنة أو حال من فتنتك أى حال كونها مضلا بها ••• الخ • أى تضل بسببها من تشاء اضلاله وتهدى من تشاء هدايته(١٠) •

ولا يستطيع منصف أن ينكر دور البلاغة فى تجلية المرامى وبلورة المفاهيم لتلك التعبيرات القرآنية العالية دون ما جنوح أو غياب عن واقع الحدث أو صياغة التعبير •

أما آية الزمر (٤٩) فهى تحكى معنى الاختبار المؤلم والاستدراج المخيف لأهل الهوى وأصحاب الصنعة الظاهرة الذين ينبهرون بنعم الله وينسون المنعم فيقعون فى الابتلاء وتحيق بهم الفتنة • يقول فى الآية الزمخشرى : «على علم — أى على علم منى أنى سأعطاه لما فى من فضل واستحقاق •

أو على علم من الله بى وباستحقاقى • أو على علم منى بوجوه الكسب •

---

(١٠) ص ٣٢٢ جـ ٣ • والظلال ص ١٣٧٧ جـ ٩ يؤكد ما قدمنا به لنص أبى السعود •

كما قال قارون : على علم عندى — بل هى فتنة — انكار لقوله كأنه قال : ما خولناك من النعمة لما تقول بل هى فتنة أى ابتلاء وامتحان لك أتشكر أو تكفر »(١١) والآية تحكى غفلة الانسان فى اسلوب شرطى مفصل ثم تحكى تخطئة الله له وانكاره لما يقول والتوكيد على أنها فتنة وليست جزاء نبوغ أو تفوق • وساعد على ذلك وقوع الفتنة خبرا للضمير الموغل فى الابهام والمسبوق بحرف الاضراب ، كل ذلك يوحى بالرد الرادع والجواب الساخر حتى يحذر كل ذى نعمة أن ينسب أى فضل لنفسه بل يرد النعمة للمنعم ويلفها بالشكر ويحفها بالثناء الجميل على الله ، والا صارت نقمة ومبعث سخط ومجلبة للهم والغم بزوالها •

ج — أما الآيات الخمس التى وردت فيها لفظة الفتنة بمعنى الاختبار والبلاء والمحنة اثر غفلة من الناس واستدراج من الله فهى :

١٢٦ من التوبة ، ١٣١ من طه ، ١١١ من الأنبياء ، ٢٧ من الدخان، ١٧ من الجن • ونصوص الآيات هى بالترتيب :

قوله تعالى : « أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون » •

وقوله تعالى : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به زواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » •

وقوله تعالى : « وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » •

وقوله تعالى : «ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم» •

وقوله تعالى : « وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا » •

---

(١١) ص ٤٠٢ ج ٣ وقريب منه ما ذكره أبو السعود ص ٢٥٨/ ٢٥٩ ج ٧ •

وواضح أن الآيات الخمس يجمعها جامع هو أن المفتون غافل لاه مستدرج ففى آية التوبة المفتون هم المنافقون • وفى آية طه المفتون هم المنعمون الغافلون الذين سيعذبون فى الآخرة بسبب ما هم فيه من النعيم كما يقول أبو السعود •• وفى آية الأنبياء المفتون هم أعداء الدين والحاقدون على المسلمين والاسلام كما يقول الزمخشرى، وفى آية الدخان المفتون هم القوم الذين أسبغ الله عليهم من نعمة وبسط لهم من رزقه فارتكبوا من المعاصى واقترفوا من الآثام ما أوجب عليهم هذا الاختبار الذى كشف عن سوء طويتهم وخبث نواياهم فاستحقوا سلب الملك والاغراق كما يقول الزمخشرى •

وأما آية الجن فالمفتون هم الجن قبل أن يستمعوا الى القرآن فلو بقوا على ما كانوا عليه من كفران ولم يسلموا لأغدق الله عليهم ما يفتنهم ويكون سببا فى اهلاكهم كما يقول الزمخشرى •

وآية التوبة التى تحكى عن المنافقين بصيغة المضارع لاستحضار صورة فتنتهم « يفتنون » ومع ذلك لا يتزجرون ولا يتعظون فتبا لهم ولأمثالهم فى زمان ومكان•يقول الزمخشرى « يفتنون — يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم ولا يذكرون ولا يعتبرون ولا ينظرون فى أمرهم »(١٢) •

ويزيد من سخط الله عليهم وعلى أمثالهم فى هذه الحياة ، ذلك الاستفهام الانكارى التوبيخى المصدرة به الآية ، أو لا يرون أنهم يفتنون •

كما أن ذكر العدد وان كان ليس مقصودا لذاته وانما لبيان كثرة

---

(١٢) ص ١٢٢ جـ ٢ •

وقوع الفتن ، معين على توضيح الغضب والذم الالهى لهم•وكان جديرا بهم أن يوقفهم ذلك البلاء بين يدى الله تعالى(١٣) •

وآية طه التى تحكى عن المترفين المنعمين أنهم ماداموا غافلين عن المنعم فالنعم نقم ونار تأكلهم فى الآخرة يقول الزمخشرى « زهرة — جمع زاهر ، وصفا لهم بأنهم زاهرو هذه الدنيا لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون وتهلل وجوههم وبهاء زيهم وشارتهم بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء من شحوب الألوان والتقشف فى الثياب » •

ويضيف : « لنفتنهم — لنهلوم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران »(١٤) رحم الله الزمخشرى فقد واسى — بمقولته هذه — أهل الله وأهل الحق والذين ديدنهم القناعة والرضا حتى يلتقوا بربهم ، فرزق ربك خير وأبقى •

وآية الأنبياء يجابه الرسول العصاة فى قومه والمعنى : « ما أدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة فى افتتانكم »(١٥) •

وآية الدخان يذكر أبو السعود ما ذكره الزمخشرى من أن الفتنة تعنى فى الآية الامهال والتوسعة فى الرزق فكان ذلك سببا فى المعاصى التى جلبت لهم العذاب والاغراق(١٦) •

وآية الجن قريبة من فحوى آية الدخان اذا ما أريد بمعناها أن لو استقام الجن الذين استمعوا على طريقتهم التى كانوا عليها قبل الاستماع ولم ينتقلوا عنها الى الاسلام لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين

---

(١٣) راجع ذلك فى أبى السعود ص ١١٣ جـ ٤ •
(١٤) راجع ذلك ص ٥٥٩/٥٦٠ جـ ٢ •
(١٥) أبو السعود ص ٨٩ جـ ٦ •
(١٦) انظر الكشاف ص ٥٠٢ جـ ٣ وأبو السعود ص ٦١ جـ ٨ •

لهم لتفتنهم فيه لتكون النعمة سببا لاتباعهم شهواتهم ووقوعهم فى الفتنة(١٧) .

(د) أما الآيات الست الأخيرة فى الشق الأول من هذه الجهة فى ذلك البحث ، فهى آيات ترد فيها لفظة الفتنة بمعنى الاختبار والامتحان ولكن ليست لفئة معينة من الناس ، بل هى لعموم الخلق ليرتفع المؤمن درجات وينتكس العاصى ويرتدع حتى يراجع نفسه لعله يعود الى ما يسعده ويكرمه فى طاعة ربه والآيات الست هى :

١٠٢ من البقرة وهى قول الله تعالى «واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

وآية ٣٥ من الأنبياء وهى « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون » .

وآية ١١ من الحج « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » .

وآية ٢ ، ٣ ، ١٠ من العنكبوت وهى : أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون•ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله

---

(١٧) الكشاف ص ١٧٠ جـ ٤ وأبو السعود ص ٤٥ جـ ٩ .

الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » • وقوله « ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين » •

ويلاحظ أن الآيات الست يجمعها جامع واحد هو عمومية المبتلى والمفتون من جهة وتقسيمه الى ناج وهالك أو مرتق فى الخير ومنحدر فى الضلال من جهة أخرى •

ولكن هذا الجامع المشترك لا يحجب الصورة الخاصة بكل لفظة داخل آيتها وفى حركة سياقها فالآية ١٠٢ من البقرة تحكى — كما يقول الزمخشرى — أن السحر الذى أنزل على الملكين لقصد ابتلاء الناس وأغوائهم بتعلمه الذى يجر الى العمل به فمن عمل به بعد ما تعلمه كفر ومن علم للتوقى ولم يغو به ولا يغتر كان مؤمنا • ويزيد من شأن الابتلاء أن الملكين يفصحان وينبهان ويقولان : انما نحن فتنة فلا تكفر أى ابتلاء واختبار من الله فلا تتعلم وأنت معتقد أنه حق(١٨) • ولما كان معلم السحر هو مصدر ومبعث للنشر والاشاعة لهذا العمل جىء بلفظة الفتنة خبرا عن ضمير الملكين • كما أنه زيادة فى صرف الناس عن الاعتقاد فى السحر جىء بالمعنى فى ثوب قصرى يعنى اثبات الفتنة ونفى أى غاية من تعليمه للناس سواها(١٩) والبشرية كما يذكر صاحب الظلال ، قد ابتليت بما يناسب حالتها وادراكها فى كل طور من أطوار حياتها ، فليس هذا غريبا ولا شاذا بالقياس الى شتى الصور وشتى الابتلاءات الخارقة(٢٠) •

---

(١٨) راجع الكشاف ص ٣٠١ جـ ١ •
(١٩) راجع أبو السعود ص ١٣٩ جـ ١ •
(٢٠) الظلال ص ٩٨ جـ ١ •

والآية ٣٥ من الأنبيـــاء تؤكد على أن الشر والخير فتنـــة بدليل الصيغة للمضارع « نبلوكم » التى تحكى وتصور تجـــدد الحـــدث واستمرارية وقوعه وأن ورود لفظة الفتنة يؤكد الفعل السابق اذ هى مصدر مؤكد لنبلوكم وان كان من غير لفظه(٢١) •كما أن أسلوب القصر الذى تختم به الآية يحث وينشط جانب الحذر من الوقوع فى الكفران بأقدار الله وأحكامه فى ابتلاءاته المتلونة وأن الرجوع حتمى الى الله لا الى غيره « والينا ترجعون » يقول أبو السعود « والينا ترجعون — لا الى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال »(٢٢) •

ويلمح صاحب الظلال(٢٣) بعبقريته أن « الابتلاء بالشر مفهوم أمره أما الابتلاء بالخير فهو أشد وطأة فكثيرون يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير»ويضيف : «ان الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث المقاومة ويحبـــذ الأعصـــاب فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها • أما الرخاء فيرخى الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقـــاومة » • ويختم حديثه : « والصلة بالله فى الحالين هى وحدها الضمان » •

وآية الحج ١١ تحكى مستخدمة الصورة التمثيلية التى تشخص المعنى وتقرب الغائر البعيد فى طويات النفس البشرية « ومن الناس من يعبد الله على حرف » يقول الزمخشرى « أى على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه » ويضيف : « وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة كالذى يكون على طرف من العسكر فان أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن والا فر وطار على وجهه(٢٤) » والفتنة

---

(٢١) راجع الكشاف ص ٥٧٢ جـ ٢ •
(٢٢) ص ٦٦ جـ ٦ •
(٢٣) ص ٢٣٧٧/٢٣٧٨ جـ ١٧ •
(٢٤) الكشاف ص ٧ جـ ٣ •

هنا تعنى خلاف الخير والغنيمة • وتختتم الآية بما يشيع الأسى والأسف على نهاية هذا الصنف من الناس حتى يحذر السامعون أن يكونوا مثلهم « ذلك هو الخسران المبين » هكذا بصيغة الخبر المؤكد والمميز أكمل تمييز باسم الاشارة • هذا فوق ما فيه من لمحة الايذان بكونه فى غاية ما يكون هو الخسران المبين وذلك لما فى « ذلك » من اشارة الى ماذكر من الخسران وما فيه من معنى البعد(٢٥) •

أما آيات العنكبوت الثلاث [٢، ٣، ١٠] فالآيتان [٢ ، ٣] نكرت فيهما الفتنة بمعنى الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات والملاذ وبالفقر والقحط وأنواع المصائب فى الأنفس والأموال(٢٦) •

وارتباط الآيتين بالفاء يشعر بمدى ارتباط المعنيين وأن ايقاع البلاوى لقصد وحكمة هى أن يتميز الصادق من الكاذب وذكر اسم الله مشعر فى الكلام بالهيبة والتثبت من الخبر يقول أبو السعود«والفاء لترتيب ما بعدها على ما يفصح عنه ما قبلها من وقوع الامتحان • واللام جواب القسم والالتفات الى الاسم الجليل لادخال الروعة وتربية المهابة وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير أى فوالله ليتعلقن علمه بالامتحان تعلقا حاليا يتميز به الذين صدقوا فى الايمان والذين هم كاذبون فيه »(٢٧) •

وبذا ندرك ما سطره صاحب الظلال قائلا : « لا يكفى أن يقول الناس آمنا • وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة

---

(٢٥) راجع أبو السعود ص ٩٨ جـ ٦ •
(٢٦) الكشاف ص ١٩٥ جـ ٣ •
(٢٧) ص ٣٠ جـ ٧ •

فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به»(٢٨) .

أما الآية(١٠) فهى تكشف عن أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فاذا مسهم أذى من الكفار كان ذلك صارفا لهم عن الايمان واذا نصر الله المؤمنين قالوا لهم انا معكم فأعطونا نصيبنا من المغنم . والفتنة هنا ايذاء الكفار لهؤلاء الناس الضعاف الايمان(٢٩) . وهى ترسم — كما يقول صاحب الظلال — صورة كاملة لنموذج من النفوس فى استقبال فتنة الايذاء بالاستخذاء ثم الادعاء العريض عند الرخاء(٣٠) .

والى هنا ، ينتهى الجانب الأول من الجهة الأولى فى هذا البحث وهو جانب التبصير وندلف الآن الى الجانب الثانى من الجهة الأولى فى هذا البحث ، وهو جانب التصبير .

ويلاحظ على ذلك الجانب أنَ الفتنة المذكورة فى آياته هى فتنة مجعولة ، أى جعلت من قبل الله لاشعار أنها فتنة لا محالة فلا يجدى معها حذر ولا ينفع معها مانع ما ، وآياتها عشر هى :

(أ) ٢٠ من الفرقان ، ٤٠ من طه وهما فتنتان جعلتا لنبيين كريمين لمزيد من الاعداد والتهيؤ لحمل الأمانة والكشف عن جانب الاقتداء لأممهم .

(ب) والآية : ٥٣ من الأنعام ، ٢٧ من القمر ، ٦٠ من الاسراء ٦٣ من الصافات ، ٣١ من المدثر ، ٥٣ من الحج . وهذه الآيات الست

---

(٢٨) ص ٢٧٢٠ ج ٢٠ .
(٢٩) راجع الكشاف ص ١٩٩ ج ٣ .
(٣٠) ص ٢٧٢٣ ج ٢٠ .

جعلت فيها الفتنة موجهة للكافرين حتى تزل أقدامهم من شنيع ما ينكرون ثم تزيد المؤمنين ثباتا على ثباتهم •

(ج) أما الآيتان : ٨٥ من يونس ، ٥ من الممتحنة • فالفتنة فيهما مجعولة من الله وموجهة منه ، لكن المؤمنين يجأرون اليه أن لا يوقعها عليهم أو بهم أو فيهم استشعارا للهول وتصويرا للشدة وذكر قبل تناول الآيات ، أن الفتنة المجعولة والموجودة لتكون فتنة ، انما هى تقع لقصد أن تواجه بالصبر النافع للمؤمنين وبالتحمل القاتل والصبر الذى لا يجدى من غير المؤمنين • فالتصبر حتمى للنوعين لأن ايقاع الفتن حتمى فى كل حال مع فارق النتيجة لدى المؤمن والكافر •

(أ) الآيتان : ٢٠ من الفرقان ، ٤٠ من طه ، وهما على الترتيب ، قول الله تعالى « وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا » ، قوله تعالى « اذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى » •

وملاحظ أن الآية الأولى خاصة بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والثانية خاصة بنبى الله موسى عليه السلام ، كما أنه ملحوظ أن الفتن فيهما مجعول ومصنوع من قبل الله « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » ، « وفتناك فتونا » فالآية الأولى مصرح فيها بالجعل الالهى والثانية محكى فيها الفتن المؤكد من قبل الله فهو فى حكم الفتن المجعول أزلا • كما أنه لا يخفى أن النبيين الكريمين يتلقيان ذلك من الله تعالى حكاية لامتنانه عليهم وكيف أنه يبصرهم ويرشدهم لتعاليمه الغالية

وسننه الكونية واللائقة برسله وأصفيائه من تبصير وتصبير أو من من وعناية واعداد طيب للرسالة •

وبالنظر فى آية الفرقان نجد أن الفتنة بمعنى المحنة والابتلاء وهى تصبير لرسول الله (ص) على ما قالوه واستهزءوه من أكله الطعام ومشيه فى الأسواق بعدما احتج عليهم بسائر الرسل والمعنى كما يقول الزمخشرى « وجرت عادتى وموجب حكمتى على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض ، فابتلى المرسلين بالمرسل اليهم وبمناصبتهم لهم العداوة وأقاويلهم الخارجة عن حد الانصاف وأنواع أذاهم ، وطلب منهم الصبر الجميل • وجعل الأغنياء فتنة للفقراء لينظر هل يصبرون ، وأنها حكمته ومشيئته يغنى من يشاء ويفقر من يشاء • وقيل جعلناك فتنة لهم لأنك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنان لكان ميلهم اليك وطاعتهم لك للدنيا أو ممزوجة بالدنيا فانما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوى» (٣١) •

ومن الملاطفة الجميلة للرسول الكريم وأمته ذلك الاستفهام المجازى الذى معناه الأمر « أتصبرون » كما أن التعرض لوصف الربوبية عن طريق الالتفات البلاغى لشعر بجزيل العطاء وكريم العناية لاسيما اذا كان مضافا لضميره صلى الله عليه وسلم وفى ذلك حث لطيف على التحمل بالصبر والارتداء به (٣٢) •

أما آية طه فالفتنة فيها تعنى المحنة وكل ما يشق على الانسان وكل ما يبتلى الله به عباده كما يقول الزمخشرى فى الآية ثم يضيف : « والفتون فى الآية اما أن يكون مصدرا أو جمع فتن أو فتنة » •

---

(٣١) الكشاف ص ٨٧ ج ٣ •

(٣٢) راجع فحاوى ذلك فى أبى السعود ص ٢١ ج ٦ •

ويضيف : « والمعنى فتناك ضروبا من الفتن وسأل سعيد بن جبير ، ابن عباس (ض) فقال : خلصناك من محنة بعد محنة(٣٣) • وملاحظ أن ذلك مع نبى الله موسى كان حفظا له من جهة وتمكين له من جهة أخرى على تحمل المشاق والاعداد للرسالة ومهامها • مع مراعاة أمير مهم فى الآيتين السابقتين هو أن كلا من الرسولين قد وقع له ما وقع من تلك الفتن دون أن يغير لها مجرى أو يستطيع منها فكاكا وهذا هو معنى جعلها فتنة وصيرورتها بلاء •

(ب) أما الآيات الست الموجه فيها الفتن المحكم للكافرين عقابا وعذابا ليرتدع أمثالهم ويثبت على الحق أضدادهم ، فهى :

٥٣ من الأنعام « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » •

فالآية تحكى كما يقول الزمخشرى خذلان المشركين وتخلى عناية الله عنهم حتى افتتنوا وكان افتتانهم سببا لهذا القول وهو «أهؤلاء من الله عليهم من بيننا — هكذا بالاستفهام الانكارى على معنى : أأنعم الله على هؤلاء المسلمين بالتوفيق لاصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا ونحن المقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء(٣٤) • وهذا هو معنى الجعل فى الفتنة أو احكام الفتن أو جريان المقدر من الفتنة ووقوعه وفق ترتيب الله وعلمه • فهم لم يستطيعوا صبرا على شرف المسلمين الفقراء تجاه علوهم المادى وصلفهم الاجتماعى • ويكشف أبو السعود عن بلاغة الغائية من الفتن الذى رتبه الله للمشركين قائلا : « واللام فى ليقولوا — للعاقبة أى ليقول البعض الأولين مشيرين الى

---

(٣٣) الكشاف ص ٥٣٧ جـ ٢ وأبو السعود ص ١٦ جـ ٦ •
(٣٤) الكشاف ص ٢٣/٢٢ جـ ٢ •

الآخرين محقرين لهم نظرا الى ما بينهما من التفاوت الفاحش الدنيوى وتعاميا عما هو مناط التفضيل حقيقة : أهؤلاء ..» ويضيف : « وقوله تعالى « أليس الله بأعلم بالشاكرين » ــ رد لقولهم ذلك وابطال له واشارة الى أن مدار استحقاق الانعام معرفة شأن النعمة والاعتراف بحق المنعم » . ويضيف « واستفهام لتقرير علمه البالغ بذلك . وفيه من الاشارة الى أن أولئك الضعفاء عارفون بحق نعم الله تعالى وأن القائلين بمعزل من ذلك كله »(٣٥) .

وبذا يتحقق ما نحن معنيون بابرازه من أن هذه فتن صيغت ووجدت لحكمة بالغة فلابد من وقوعها ووقوع ما وجدت من أجله كتعبير الله تعالى عن شيء من سننه فى كونه يقول الزمخشرى فى صدر الآية من تشبيه يحكى الحاق الحادث بالسالف « وكذلك فتنا » ــ أى ومثل ذلك الفتن العظيم فتنا بعض الناس ببعض أى ابتليناهم بهم(٣٦) .

والآية ٢٧ من القمر « انا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر » تحكى توكيد الله على أن ارسال الناقة لقوم صالح كان لقصد فتنتهم وقد وقع ، فما لبثوا أن تعجلوا وعقروها فحق عليهم العذاب ، فالفتنة مجعولة أزلا وواقعة وفق قدر وحكمة الله تعالى فلا يحجزها حاجز ولا يدفع بلاءها دافع . لذا كان ربنا مصبرا لنبيه صالح وحاثا له على التمهل حتى يقع أمره تعالى يقول الزمخشرى « انا مرسلو الناقة ــ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ، فتنة لهم أى امتحانا وابتلاء . فارتقبهم أى فانتظرهم وتبصر ماهم صانعون . واصطبر : على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمرى(٣٧) .

---

(٣٥) أبو السعود ص ١٣٩/١٤٠ جـ ٣ .
(٣٦) ص ٢٣ جـ ٣ .
(٣٧) ص ٣٩ جـ ٤ ، وأبو السعود ص ١٧٢ جـ ٨

والآية ٦٠ من الاسراء « واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس ومـا جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا » .

فالآية تحكى صنيع الله مع رسوله الكريم ، الذى امتن به عليه وكان لقصـد الفتنـة للمشركين حتى يزدادوا اثما ولتثبيت المؤمنين وليزدادوا ايمانا ، فقد ذكر الزمخشرى « أن الله تعالى أراه فى منامه مصارع القوم فى غزوة بدر وهو يومىء الى الأرض ويقول هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان ، فتسامعت قريش بما أوحى الى رسول الله (ص) ، فكانوا يضحكون ويستخرون ويستعجلون به استهزاء هذا عن فتنة الرؤيا . أما عن فتنة شجرة الزقوم فيقول : « وحين سـمعوا بقوله : ان شجرة الزقوم طعام الأثيم — جعلوها سـخرية وقالوا ان محمدا يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ، وما قدروا الله حق قدره .

ويضيف الزمخشرى تصويرا للفتنة التى أخذت بتلابيبهم وأعمت قلوبهم لأنها مجعولة من قبل الله فتنة ماحنة حارقة ، يقول « أنكروا أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار مع أن وبر السـمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت فى النار فذهب الوسخ وبقى المنديل سالما لا تعمـل فيه النار » ويضيف : « وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر باحمـاء النار ، فلا تضرها،ثم أقرب من ذلك أنه خلق فى كل شجرة نارا فلا تحرقها»(٣٨) .

ويحتمل أن تكون الرؤيا فى الآية للاسراء والمعراج فهى خارقة وقعت لرسول الله (ص) وجعلت فتنة وابتلاء حتى لقد ارتد بعض من

---

(٣٨) ص ٤٥٥ ج ٢ وأبو السعود ص ١٨٢ ج ٥ .

كان آمن بالرسول (ص) بعد حادثة الاسراء كما ثبت بعضهم وازداد يقينا (٣٩) • ووقوع مثل هذا لهو تأكيد على تحقق معنى الفتن فى هذه الأحداث الجسام •

كما أن فتنة الله لهم فى شجرة الزقوم وصلت الى حد أن قال أبو جهل متهكما : هاتوا لنا تمرا وزبدا،وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا (٤٠) •

وملاحظ أن الآية صدرت بأداة الظرف اذ اشعارا بتذكيره باكرام الله لنبيه وتثبيت احاطته وقهره لقريش يقول الزمخشرى : «واذ قلنا لك أن ربك أحاط بالناس — أى واذكر اذ أوحينا اليك ان ربك أحاط بقريش ، يعنى بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم »(٤١) • كما لا يخفى اخراج محتوى الآية فى أسلوب القصر بطريق (ما والا) ايذانا بالتصديق به والتثبت من مضمونه وتوكيدا على تملك الله تعالى لأزمة الأمور وعواقبها « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن»•هكذا فى ايجاز وتوكيد شديدين •

والآية ٦٣ من الصافات « انا جعلناها فتنة للظالمين » والضمير فى « جعلناها » يعود على شجرة الزقوم أى جعلها الله فتنة للظالمين لأنفسهم وقد خرجت هنا مؤكدة مثبتة واضحة •

وايلاء الضمير المعظم لأخيه السابق وايقاع مفعولهما على تلك الشجرة لهو تهويل وتفخيم لتلك الفتنة وتعظيم لشأن موقعها وتهويل من شأن العقاب على التكذيب بها •

(٣٩، ٤٠) انظر القرطبى ص ٢٨٢ جـ ١٠ والظلال ص ٢٢٣٨ جـ ١٥.
(٤١) ص ٤٥٥ جـ ٢ •

والآيـــة ٣١ من المدثر « وما جعلنا أصحاب النـــار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقـــول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشـــاء وما يعلم جنـــود ربك الا هو وما هى الا ذكرى للبشر » •

والآية تحكى جعل الله عدة الملائكة على سقر تسعة عشر • وهذا العدد هو مبعث الفتنة يقول الزمخشرى : « وذلك أن المراد بقـــوله : وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ـــ وما جعلنا عدتهم الا تســـعة عشر•فوضع : فتنة للذين كفروا ، موضع تسعة عشر » ويضيف مبرزا الملمح فى ذلك قائلا : « لأن حال هذه العدة الناقصة واحدا من عقـــد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويســـتهزىء ولا يذعن اذعان المؤمن وان خفى عليه وجه الحكمة »(٤٢) •

وملحوظ فى نص الآية استيقان أهل الكتاب لأن عدتهم تسعة عشر عندهم وكذلك فى نص الآية سمى العدد مثلا على سبيل الاستعارة بجامع البداعة والدهشة فى كل(٤٣) •

أما آية الحج ٥٣ « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفى شقاق بعيد » • فهى تحكى الغاية من قصة الغرانيق وأوجز وأليق ما قيل أن رسول الله ﷺ لمـــا أعرض عنه قومه وشاقوه تمنى لحرصه على اسلامهم أن لاينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقا الى استمالتهم فاستمر به ما تمناه حتى

---

(٤٢) ص ١٨٤/١٨٥ جـ ٤ •

(٤٣) راجع فحاوى ذلك فى الكشاف وفى أبى السعود ص ٥٩ ، ٦٠ جـ ٩ •

نزلت عليه سورة النجم وهو فى نادى قومه وذلك التمنى فى نفسه فأخذها يقرؤها فلما بلغ قوله : ومناة الثالثة الأخرى تكلم الشيطان فقال تلك الغرآنيق العلا وان شفاعتهن لترتجى • فأسمع الناس ذلك فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى وطابت نفوسهم» • ويضيف : « وكان تمكن الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء زاد المنافقون به وشكا وظلمة ، والمؤمنون نورا وايقانا »(٤٤) •

وواضح من السياق لفظا : الجعل والفتنة لهذا الالقاء من الشيطان مع ما فى اللام من اشارة لعاقبة الالقاء والعلة منه «ليجعل» •

جـ — وأما الآيتان ٨٥ من يونس ، ٥ من الممتحنة ، فهما وان كانا من الفتنة المجعولة الا أنهما ينبعثان على لسان المؤمنين الذين يتعوذون بالله ويستمطرون وداداته التى تجنبهم وقوعهم فتنة للذين كفروا بحيث تتخلى عنهم ألطافه تعالى وتنزل بهم أقداره وأحكامه التى قد تجعلهم فتنة للظالمين والآيتان ٨٥ من يونس وهى قوله تعالى : « فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين » • و٥ من الممتحنة « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم » •

وآية يونس تحكى مقولة المؤمنين مع موسى عليه السلام الذين آمنوا به مع قلة عددهم وتوكلوا على الله مستجيرين برحماته وهيمنته والمعنى كما يقول المفسرون « ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم للظالمين — أى لا تنصرهم علينا فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين أو لا تمتحنا بأن تعذبنا بعذاب من عندك فيقول أعداؤنا : لو كانوا على حق لم نسلط عليهم

---

(٤٤) ص ٢٥٤ جـ ٣ وأبو السعود ص ٣٠٧ جـ ٦ •

فيقتلوا • وقال أبو مجلز : يعنى لا تظهرهم علينا فيروا أنهم خير منا فيزدادوا طغيانا »(٤٥) •

وبذا تكون الفتنة المجعولة فى الآية والمتعوذ منها بمعنى الهزيمة والهوان أو التعذيب والايذاء • والمعنى الأول يعود فتنة على المشركين بسوء الفهم فيقولون لو كانوا على حق لما هزمناهم • والمعنى الثانى يعود غالبه على المؤمنين اذ التعذيب والايذاء باعث على الفتن والارجاع عن الدين ولو فى الظاهر ، وكلا المعنيين من البلاء الكبير الذى يتطلب مزيدا من الدعاء واللهفة ليجنب الله أحبابه منه • وقد جنبهم ورحمهم، يقول الزمخشرى : « انما قالوا ذلك لأن القوم كانوا مخلصين لا جرم أن الله سبحانه قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه »(٤٦) •

وأما آية الممتحنة فتلتقى مع آية يونس فى لهفة الدعاء وتوحيد الجهة واخلاص القلب وتزيد فى تكرير النداء وذلك للمبالغة فى التضرع والجؤار(٤٧) •

والى هنا تنتهى الجهة الأولى من البحث ونتجه الى الثانية وهى جهة كشف الشر والتحذير من التمادى فيه •

الجهة الثانية من البحث وهى : جهة كشف الشر والتحذير من التمادى فيه • وآياتها خمس عشرة تتحرك فى ثلاثة أركان هى :

أ — ركن تعرض فيه الفتنة بمعنى التضليل والتشويش على قضية التوحيد ومحاولة ثنى أهله عنه وعن رؤيته واضحا ، أو تحول

(٤٥، ٤٦) الكشاف ص ٢٤٩ جـ ٢ والقرطبى ص ٣٧٠ جـ ٨ وأبو السعود ص ١٧١ جـ ٤ •

(٤٧) أبو السعود ص ٢٣٨ جـ ٨ والرازى ص ٣٠٢ جـ ٢٩ •

بينهم وبين الدفاع عنه.وآيات هذا الركن ست هى : ٧ من آل عمران. ٤٧،٤٨،٤٩ من التوبة ٨٥،٩٠ من طه .

ب ــ ركن تعرض فيه الفتنة بمعنى الاغراء بالمعصية من نفاق وتشاؤم وافساد وآيات هذا الركن أربع هى : ٤٧ من النمل ، ١٦٢ من الصافات ، ١٤ من الحديد ، ٦ من القلم .

جـ ــ ركن تعرض فيه الفتنة بمعنى الوقوع فى المحظور الشديد خطره الذى يعقبه عموم الأذى وشمول الضرر . وآيات هذا الركن خمس هى :

٤٩ من المائدة ، ٢٧ من الأعراف ، ٢٥،٧٣ من الأنفال ، ٦٣ من النور ، وقد لاحظنا من استعراض النصوص وما يجرى فيها من معان ولفتات أن :

أ ــ الركن الأول واضح فيه الحرص من الفاتن ليوقع ويبعد المفتون عن الحق الأبلج .

ب ــ الركن الثانى واضح فيه الحرص من الفاتن على التزيين والتمويه والستر على المفتون .

جـ ــ الركن الثالث واضح فيه عنصر الرحمة الالهية التى تحذر من الاستسلام والغفلة لمكائد الشيطان التى تقضى على الأخضر واليابس .

أ ــ ولنبدأ بتناول الركن الأول من هذه الجهة وآياته الست هى :

٧ من آل عمران وهى قول الله تعالى «هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله

الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب » .

و ٤٧،٤٨،٤٩ من التوبة وهى قوله سبحانه : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين .

لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين » ، ٨٥،٩٠ من طه وهما قوله تعالى : « قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى » ، « ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى » .

والآية ٧ من آل عمران وردت فيها الفتنة بمعنى محاولة اضلال الناس عن دينهم وذلك لتعلق أهل البدع بالمتشابه من القرآن ليساعدهم ذلك فى أن يؤولوا بما يشتهون(٤٨) . اذ المحكم من الآيات هو القطعى الدلالة بمعنى محكمة عبارته محفوظة من الاحتمال والاشتباه.والمتشابه من الآيات هو ما احتمل المعانى المتشابهة التى لا يمتاز بعضها عن بعض فى استحقاق الارادة بها ولا يتضح الأمر الا بالنظر الدقيق والتأمل الأنيق من ذوى العلم والبصر وبذا يظهر فضلهم ويزداد حرصهم على الاجتهاد.والا ترك القرآن نهبا لذوى الأهواء الجهال وخبث النوايا(٤٩)

وفى ايراد لفظة الفتنة مضافا اليها ومسبوقة بلفظة « ابتغاء » لفى ذلك توكيد لما أسلفناه من حرص الفاتن فى الآيات يتضح من قول

---

(٤٨) تأمل ما ذكره الزمخشرى ص ٤١٣ جـ ١ .

(٤٩) تأمل ما ذكره أبو السعود ص ٧ ، ٨ جـ ٢ .

الله عنهم « لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة » ويزيد من خطرهم وجود السماعين والنمامين لهم من الفريقين ويتفاقم شرهم عند قول الله عنهم « لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور » كناية عن شديد حرصهم وتعبيرا عن كبير حقدهم على الرسول والرسالة • ثم تكشف الآيات وتصف حالهم عند نصر الله لرسوله « حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون» حال ووصف لهم مؤكد ومقرر ينم عن سوء الطوية •

ثم تحكى الآية الثالثة لونا من زيفهم وغشهم وايهامهم أنهم يخدعون رسول الله وهم فى الحقيقة مخدعون ساقطون فى الاثم والسخط «ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا» •

يقول الزمخشرى فى الآيتين ٤٧،٤٨ « لو خرجوا ••• خبالا — الخبال : الفساد والشر • ولأوضعوا خلالكم : ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم وافساد ذات البين والمعنى : ولأوضعوا ركائبهم بينكم والمراد الاسراع بالنمائم لأن الراكب أسرع من الماشى(٥٠) •

وفى هذا الكشف تصوير لحرصهم على الافساد وكناية بليغة عن سوء طويتهم وشديد عزمهم على الاضرار بالمسلمين •

ويضيف الزمخشرى : « يبغونكم الفتنة أى يحاولون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدون نياتكم فى مغزاكم • وفيكم سماعون لهم أى نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه اليهم أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم ويضيف : « لقد ابتغوا الفتنة أى العنت ونصب الغوائل والسعى فى تشتيت شملك وتفريق أصحابك • من قبل أى من قبل غزوة تبوك • وقلبوا لك الأمور : دبروا لك الحيل والمكايد

---

(٥٠) ص ١٩٤ ج ٢

ودوروا الآراء فى ابطال أمرك • حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون : وظهر أمر الله وغلب دينه وعلا شرعه(٥١) • ويضيف الزمخشرى حول الآية الثالثة ٤٩ : « ائذن لى • أى فى القعود • ولا تفتنى : أى ولا توقعنى فى الفتنة وهى الاثم بأن لا تأذن لى فانى ان تخلفت بغير اذنك أثمت • ألا فى الفتنة سقطوا أى أن الفتنة هى التى سقطوا فيها وهى فتنة التخلف »(٥٢) •

وهذه المحاولات من أهل الشرك والضلال تجاه أهل التوحيد والهدى لتكشف عن عمى فى القلب واختلال فى العقل وشفاعة فى السلوك ، كل ذلك منهم اتسق واتفق معه أن يصور الله خيبتهم وسوء مآلهم فى الدنيا والآخرة والعلامة أبو السعود يزيل كثيرا من الأغطية ويبرز كثيرا من المرادات البليغة فى نص الآية الثالثة ويقف وقفات مجلية لذلك كله — فيقف مثلا عندأداة التنبيه « ألا » •

وحرف الجر «فى» وأداة التعريف «أل» وضمنها بالوعيد الشديد فيقول « ألا فى الفتنة — أى فى عينها ونفسها وأكمل أفرادها الغنى عن الوصف بالكمال الحقيق باختصاص اسم الجنس به » • ويضيف : «وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه مع تقديم الظرف ايذان بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة زعما منهم أن الفتنة انما هى التخلف بغير « اذن » •

ويضيف : « وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى أسفل سافلين » ثم يختم قائلا : « وقوله : وان جهنم لمحيطة بالكافرين —

(٥١،٥٢) المرجع السابق والصفحة ذاتها •

وعيد لهم على ما فعلوا معطوف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه وايثار الجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار »(٥٣) .

أما الآيتان ٨٥، ٩٠ من طه والفتنة فيهما تعنى الاضلال والتزييف لتحويل القلوب عن التوحيد والعقيدة الحقة . فان الآية الأولى تحكى ابتلاء الله لقوم موسى لعبادة العجل وذلك بأن أضلهم السامرى ، فالفتنة تعنى الاضلال والتدبير فتنوا ما نجا منهم الا القليل حيث كانوا ستمائة ألف عبدوا العجل الا اثنا عشر ألفا . وذلك من دقة التدبير وخفى الحيل التى أوقعهم فيها السامرى فقد كان ضالا قادرا على اضلال غيره فى سهولة ويسر بدليل أن هناك قراءة على صيغة التفضيل « وأضلهم السامرى أى هو أشد ضلالا لأنه ضال مضل.وهو منسوب الى قبيلة من بنى اسرائيل يقال لها السامرة »(٥٤) .

والآية ٩٠ تحكى تحذير هارون لقومه من أن يفتتنوا بالعجل الذى فتنهم به السامرى وتحكى الآية مؤكدة ، ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى واطيعوا أمرى هكذا تجمع بين التحذير والترغيب تحذير من عبادة العجل وترغيب واستمالة لهم ليتبعوه ويعبدوا الرحمن الرحيم . والفتنة هنا تعنى الاستحسان وقبول الزيف . يقول الزمخشرى : « من قبل — أى من قبل أن يقول لهم السامرى ما قال : كأنهم أول ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة افتتنوا به واستحسنوه فقبل أن ينطق السامرى بادرهم هرون (س) بقوله انما فتنتم به وان ربكم الرحمن »(٥٥) .

---

(٥٣) أبو السعود ص ٧٢ ج ٤ .

(٥٤) راجع الكشاف ص ٥٤٩ ج ٢ وأبو السعود ص ٣٤ ج ٦

(٥٥) الكشاف ص ٥٥٠ ج ٢ .

ويجلى أبو السعود ما فى الآية من شديد الغضب لدى هرون عندما عتوا وطغوا فيقول : « ولقد قال لهم هرون من قبل ــ جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الانكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على رسولهم » .

ويضيف مجليا توجيه القصر الى فحوى الفتنة ونفى الارشاد تبيانا للتغرير بهم فيقول : « انما فتنتم به ــ أى أوقعتم فى الفتنة بالعجل أو أضللتم ، على توجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالقياس الى مقابله الذى يدعيه القوم لا الى قيده المذكور بالقياس الى قيد آخر ، على معنى انما فعل بكم الفتنة لا الارشاد الى الحق . لا على معنى انما فتنتم بالعجل لا بغيره . « فيكون قصر قلب قصرا اضافيا . كما أن أبا السعود يلمح من ذكر لفظة «رب» ولفظة «عجل» فى السياق ، تبيانا مشعرا بباطل وسخف ما استحسنوه وبحق وجدارة من غفلوا عنه فيقول : وقوله تعالى : « وان ربكم الرحمن ــ ارشاد لهم الى الحق اثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم الى الحق ، كما أن التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل »(٥٦) .

ب ــ أما آيات الركن الثانى فى هذه الجهة فآياته أربع هى :

٤٧ من النمل وهى قوله تعالى « قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال إنما طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون » ...

١٦٢ من الصافات وهى قوله « ما أنتم عليه بفاتنين » .

---

(٥٦) أبو السعود ص ٣٦/٣٧ ج ٦ .

١٤ من الحديد « ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغـــرور ...

٦ من القلم « بأيكم المفتون » .

وكما سبق أن أشرنا الى أن هذا الركن الثانى فى تلك الجهة يتضح فيه عنصر التزيين والتمويه والستر من الفاتن على المفتون .

ففى آية النمل (٤٧) تحكى تمويه الشيطان ودسه على القوم بأن يجعل اختبار الله لهم بتعاقب السراء والضراء لونا من ألوان الضـــيق والتشديد وأن يصور لهم أن القحط الذى أصابهم هو من جراء الدين الجديد لذا فهم متشائمون متطيرون بنبيهم صالح ودعوته .

يقول أبو السعود فى الآية(٥٧) : « قالوا اطيرنا بك وبمن معك ـــ فى دينك حيث تتابعت علينا الشدائد وقد كانوا قحطوا .. بل أنتم قوم تفتنون ـــ أى تختبرون بتعـــاقب السراء والضراء . أو تعـــذبون . أو يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم الطيره » .

وفى النظم الكريم دليل تبصير وتوجيه للقوم فى قوله تعـــالى : « طائركم عند الله » اذ يقول الزمخشرى(٥٨) « أى سببكم الذى يجىء منه خيركم وشركم ان شاء رزقكم وان شاء حرمكم » وكأنه يقول لهم لقد ضـــللتم فما أنا الا مبلـــغ عن ربى لا أملك لكم ولا لنفسى نفعـــا ولا ضرا . والآية ترد القوم الى الصواب والحق وتبلج ما هم فيـــه وتضرب عما سواه من زيف « بل أنتم تفتنون » هكذا بصيغة المضارع

(٥٧) أبو السعود ص ٢٩٠ ج ٦ والزمخشرى قبله ص ١٥١ ج٣
(٥٨) المرجع السابق بصفحته .

التى تصور بقاءهم على الضلال وأن الشيطان مازال وسيظل يوسوس لهم طالما هم مقبلون عليه •

وفى آية الصافات ١٦٢ ترد صيغة « فـاتنين » وهى جمع فـاتن بمعنى باعث وحامل على الضلال والفساد والخيبة • وهى منفية من قبل الله تعـالى •

وفى ذلك اشعار بأن أهل الباطل ماضون فى الاضلال والافسـاد ليبعـدوا أهل الحـق عن طريقـه لكن الله تعالى يوضـح لهم أنهم لا يستطيعون ذلك الا مع سبق علم الله بفسادهم واغوائهم وميلهم الى الباطل ، أما ما عداهم فليس هناك من سلطان عليهم •

يقول الزمخشرى : « فانكم ومعبـوديكم ما أنتم وهم جميعـا بفاتنين على الله الا أصحاب النـار الذين سبق فى علمه أنهم لسـوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها » وعن بلاغة حرف الجر المتقـدم على ضمير الجلالة وكيفية تأتى معناه يقول « فان قلت كيف يفتنونهم على الله ؟ قلت يفسدونهم عليه باغوائهم واستهزائهم من قولك فتن فـلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها وخيبها عليه •

ويضيف : « ثم قال : ما أنتم عليه بفاتنين : أى بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والاضلال الا من هو ضال مثلكم »(٥٩) •

وفى آية الحديد ١٤ ترد لفظة « فتنتم » محكية عن المنافقين الذين ظلموا أنفسهم ومحنوها وأهلكوها بهذا النفاق الذى أودى بهم الى النار وعذابها فى الآخرة(٦٠) •

---

(٥٩) الكشاف ص ٣٥٥ ج ٣ وأبو السعود ص ٢٠٩ ج ٧ •

(٦٠) تأمل ما ذكره باقتضاب كل من الزمخشرى ص ٦٣ ج ٤ وأبو السعود ص ٢٠٨ ج ٨ •

والآية تعرض موقف المنافقين فى الآخرة وهم ينظرون للمؤمنين فى الجنة ونعيمها ويسألونهم سؤال تحسر وندم « ألم نكن معكم » فيرد المؤمنين « بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم » أى بلى كنتم معنا الا أنكم اخترتم طريق النفاق فأهلكتم اليوم أنفسكم بعذاب النار بعد أن آذيتم مشاعركم وفطرتكم فى الدنيا بالنفاق والمواربة وستر الحق •

أما آية القلم (٦) فهى تربط بطريق لغوى بلاغى دقيق بين الفتن المعهود لدينا وبين الجنون الذى هو ستر العقل أو غيابه فهم لما قالوا عن رسول الله انه مجنون ، نفى الله ذلك عنه فى مطلع الآية بقوله : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » ثم أكد على صفاء عقله وألمعية قريحته واستواء فطرته بقوله له « وانك لعلى خلق عظيم » ثم توعدهم وأمهلهم بأنهم سوف يتأكدون أنهم هم المجانين وليس غيرهم «فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون » •

والربط بين الفتن بمعنى الاحراق والجنون بمعنى تغييب العقل أو ستره ، واضح فالعلاقة هى المشابهة اذ فى الاحراق قضاء وازالة للمحروق وجزئياته شيئا فشيئا ولو كان ذلك لما تعلق به والتصق•وفى الجنون قضاء وازالة ولو مؤقتة لتحكيم العقل ووزن الأمور،اذ المجنون هو من محن بالجنون •

يقول الزمخشرى فى الآية « بأيكم المفتون — المفتون أى المجنون لأنه فتن أى محن بالجنون ••• أى بأيكم الجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين أى فى أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم ، وهو تعريض بأبى جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما »(٦١) •

جـ — أما آيات الركن الثالث فهى خمس ، تعرض فيها الفتنة

---

(٦١) الكشاف ص ١٤١ جـ ٤ وأبو السعود ص ١٢ جـ ٩ •

بمعنى الوقوع فى الخطر الشديد وصنع المحظـور الذى يعقبه الأذى العام والضرر الشامل والآيات هى :

٤٩ من المائدة « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون » .

والآية ٢٧ من الأعراف « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كمـا أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون » .

والآيتان : ٢٥، ٧٣ من الأنفـال « واتقوا فتنة لا تصـيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شـديد العقاب ، والذين كفـروا بعضهم أولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .

والآية ٦٣ من النـور « لا تجعـلوا دعاء الرسول بينكم كدعـاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

والمتأمل فى الآيات الخمس يجد فيها روح اللطف الالهى والرحمة الربانية بالعباد فهى تدعونا أن نتقى النار وتحذرنا من احـراق الفتن وألا نستسلم للشيطان وألاعيبه .

وبالنظر فى الآية الأولى فى هذا الركن وهى ٤٩ من المائدة . فقـد وردت فيها لفظة الفتنة على صيغة المضارع للمخاطب الكريم وهو النبى صلى الله عليه وسلم « واحذرهم أن يفتنوك » ومعناها احـذرهم أن يزيلوك ويصرفوك عما أنت عليه من الحق والهدى وفى ذلك ملحظ لمدى حرصهم وعزمهم الدائم والمتجدد نحو تغـيير الوضع القائم للرسـالة والرسول .

وفى الآية ملحظان الأول هو تصوير الباطل بصورة الحق وذلك فى تصرف جماعة من اليهود قصدا فى فتنته صلى الله عليه وسلم فى دينه لكن الله أعلمه حيلتهم وما دبروه من تزييف • والثانى التأكيد على التحذير والتهويل من صنيع القوم والغفلة عنه • يقول أبو السعود : « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك — أى يصرفوك عن بعضه ولو كان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق » • ويضيف : « واظهار الاسم الجليل لتأكيد الأمر بتهويل الخطب واعادة « ما أنزل الله » لتأكيد التحذير »(٦٢) •

والآية الثانية وهى ٢٧ من الأعراف تحـذر وتخوف من الشيطان وعداوته القديمة فالفتنة فيها بمعنى الايقاع فى المحظور ثم تردف النهى بتعليل بلاغى رائع ينمى جانب الحذر ويفخم جانب الحيطة الدائمـة يقول الزمخشرى « لا يفتننكم الشيطان — لا يمحننكم بأن لا تدخلـوا الجنة كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها • ينزع عنهما لباسهما • حال أى أخرجهما نازعا لباسهما بأن كان سببا فى أن نزع عنهما • انه يراكم هو وقبيلة — تعليل للنهى وتحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو المداجى يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون ••• »(٦٣) •

ولا يخفى أن وقع هذه النصائح على النفس يكون أكثر تأثـيرا اذا ما كانت مصدرة بهذا النداء الرقيق « يا بنى آدم » وتلك الاضافة المذكرة بقصة هذا الشيطان مع أبينا نبى الله آدم • وكأن الله يقـول لنا يا من أنتم أولاد المفتون الأول احذروا من فتن أباكم واتعظـوا بما وقـع •

---

(٦٢) ص ٤٦ جـ ٣ وقبله الزمخشرى ص ٦١٨ جـ ١ مركزا كلامه على سبب النزول ومعنى الفتنة •

(٦٣) ص ٧٤ جـ ٢ • ومثله فى أبى السعود ص ٢٢٢ جـ ٣ •

والآية الثالثة وهى ٢٥ من الأنفال وردت لفظة الفتنة مرادا بها اقرار المنكر بين أظهرهم أو افتراق الكلمة • وهذا أمر يدعو للأسى والحسرة اذ لو علمه المسلمون اليوم ودرسوه وتأملوه لارتفعوا عن سفاسف الأمور وخلعوا أردية الجفوة وثياب الأحقاد وأقنعة الترهيب فيما بينهم لأنهم جسد واحد وأمة واحدة والا وقع العذاب الذى لا يترك صغيرا ولا كبيرا ، ولا يخفى جانب التحذير المركب من صيغة الأمر « واتقوا » ولفظة المفعول « فتنة » وتنكيرها المشعر بالتهويل والجسامة بدليل الجملة بعدها التى هى جواب الأمر السابق أو نهى بعد أمر أو صفة لفتنة يقول فى ذلك كله الزمخشرى : «واتقوا فتنة — أى ذنبا ، قيل هو اقرار المنكر بين أظهرهم وقيل افتراق الكلمة•وقيل فتنة أى عذابا »(٦٤) •

وعلى أى حال فالعذاب مترتب على الذنب • ويضيف :

« وقوله : لا تصيبن : لا يخلو من أن يكون جوابا للأمر أو نهيا بعد أمر أو صفة لفتنة • فاذا كانجوابا فالمعنى : ان أصابتكم لاتصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم • واذا كانت نهيا بعد أمر فكأنه قيل: واحذروا ذنبا أو عقابا ، ثم قيل : لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة • وكذلك اذا جعلته صفة على ارادة القول كأنه قيل : واتقوا فتنة مقولا فيها لا تصيبن »(٦٥) •

أما أبو السعود فيضيف صورا أخرى قد تقع من المسلمين فتعرضهم لمثل تلك الفتنة فيقول « كاقرار المنكرين أظهرهم ، والمداهنة فى الأمر والنهى عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد »(٦٦) •

(٦٤،٦٥) الكشاف ص ١٥٢ ج ٢ •

(٦٦) ص ١٦ ج ٤ •

أما العلامة القـرطبى فيذكر أنه « عند ظهور المعاصى وانتشـار المنكر وعدم التغيير وجب عـلى المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجـران تلك البلدة والهرب منها »(٦٧) • ولعله يعنى بذلك عدم الصـبر حتى يقـع العذاب •

والآية الرابعة وهى ٧٣ من الأنفال تحكى عن لون آخر من ألوان الفتنة التى يعم شرها ويستشرى لهيبها ، وهى تلك الفتنة والعـذاب الذى يقع من ترك موالاة المسلمين والتخلى عنهم مع مصادقة ومصاحبة وموالاة لغـيرهم من أهـل الشرك والكفر • فالفتنة فى الآية تعنى : « ضعف الايمان وظهور الكفر »(٦٨) وفى ذلك مجلبة للفساد • وجانب التحذير فى الآية فى هذا الاسلوب الشرطى الى يحمـل جوابه الرعب والهول كله « الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » •

هكذا بلفظة منكرة « فتنة » وعطف عليهـا لفظة منكرة من جهـة وموصوفه بالهول من جهة أخرى « وفسـاد كبير » وفى ذلك اشـاعة للترهيب والتخويف من المخالفة •

والآية الأخيرة هنا هى ٦٣ من النور فهى وان كان المقصود بهـا هم المنافقون لأنهم هم الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين كما يقـول الزمخشرى ، والفتنة هنا المترتبة عن مخالفتهم لرسول الله هى المحنة فى الدنيا من قبل وزلازل وأهوال وسلطان جائر ، والعذاب الأليـم فى الآخـرة(٦٩) •

وكلمة « أو » فى الآية ليست لمنع الجمع بين العذابين بل هى مانعة

---

(٦٧) تفسير القرطبى ص ٣٩٢ جـ ٧ •
(٦٨) الزمخشرى ص ١٧٠ جـ ٢ وأبو السعود ص ٣٨ جـ ٤ •
(٦٩) ص ٧٩ جـ ٣ وكذا الألوسى ص ٢٢٦/٢٢٧ جـ ١٨ •

خلو كما يقول أبو السعود واعادة الفعل « يصيبهم » للاعتناء بالتهديد والتحذير (٧٠) • لاسيما اذا ما كانت الآية قد صدرت الأمر بالتحذير مؤكدا بلام وصيغة الفعل « فليحذر » •

هذا ، وبالتأمل الذى يربط بين الآيات الخمس نجد أنه لا أخطر ولا أشد من أن يفتن رسول الله بصنيع أعدائه ، وكذا لا أخطر ولا أشد على المرء من أن يفتن بمن هو يراه ولا يراه وكذا لا خطر ولا أشد من شيوع العذاب فى المجموع كله : من أذنب ومن لم يذنب • وكذا لا أشد ولا أخطر من جمع بين عذابين دنيا وآخرة اثر مخالفة الحق وأهله •

أما الجهة الثالثة فى هذا البحث فهى جهة الفتن المتبادل بين أهل الحق وأهل الباطل •

وذلك الصراع القائم بينهما والمنتهى — حتما — لصالح الحق وأهله الصابرين الصامدين والواثقين فى ربهم وفى سننه التى لا تتبدل ولا تتغير •

والآيات التى تنتظمها تلك الجهة اثنتا عشرة آية ، سبع منها تحكى فتنة الباطل لأهل الحق ، وخمس تحكى فتنة الحق لأهل الباطل •

والآيات الحاكية لفتنة أهل الباطل لأهل الحق هى :

أ — ما يحكى خداعهم للرسول الكريم وتوليهم عند الزحف ورجوعهم للكفر والمعبر عن ذلك آيتان هما ٧٣ من الاسراء ، ١٤ من الأحزاب •

ب — ما يحكى مقاتلتهم للمؤمنين والمعبر عن ذلك آيتا ٩١ ، ١٠١ من النساء •

---

(٧٠) ص ١٩٨ جـ ٦ وكذا الألوسى ص ٢٢٦/٢٢٧ جـ ١٨ •

ج ــ ما يحكى ايذاءهم المتنوع للمؤمنين ــ دون دخول فى حرب ــ والذى يصل الى حد احراقهم بالنار ، وآيات ذلك هى : ٨٣ من يونس ١١٠ من النحل ، ١٠ من البروج •

أ ــ والآيات الحاكية لخداعهم للرسول الكريم وتوليهم عند الزحف ورجوعهم للكفــر •

الآية ٧٣ من الاسراء وهى قول الله تعالى : « وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لا تخذوك خليلا • وقوله تعالى فى الآية ١٤ من الأحــزاب « ولو دخلت عليهم من أقطــارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا » •

وبالنظر فى هاتين الآيتين نجد أن لفظة « يفتنونك » فى آية الاسراء وان كانت مفرغة المحتوى ، فهى لم تقع ولن تقع لعناية الله برســوله وهيمنة الحق تجاه البــاطل ، ولكنها فى الوقت ذاته ملمح من مــلامح المحاولات الطائشة من أهل الباطل والشرك تجــاه الحق وأهــله يقول الزمخشرى ويتابعه أبو السعود فى الآية المعنى : أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين عن الذى أوحينا اليك من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا • ويضيفان : « وهذا تهييج من الله لرسوله وفضــل تثبيت له »(٧١) •

وآية الأحزاب وردت فيها لفظة « الفتنة » مقصودا بها حنينهم للكفر وبقاء كرههم للاسلام • وخروج الآية فى أسلوب شرطى دليل على اعتمال تلك المشاعر فى نفوسهم وأنهم يتطلعون اليها بحيث لو وقعت لصدقوا مع مشاعرهم ونفضــوا أيديهم من عهودهم مع رســول الله ومجىء اللام فى جواب « لو » دليل مشعر بذلك « لأتوها » ويدعمه ما

---

(٧١) الكشاف ص ٤٦٠ جـ ٢ وأبو السعود ص ١٨٩ جـ ٥ •

عطف عليه « وما تلبثوا بها الا يسيرا » • سواء كان المدخول هو المدينة بأسرها أو بيوتهم الخاصة بهم • يقول الزمخشرى ويتابعه أبو السعود فى الآية « ولو دخلت عليهم ــ المدينة ، وقيل بيوتهم من قولك : دخلت على فلان داره • من أقطارها : جوانبها • يريد ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التى يفرون خوفا منها مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها وانثالت على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين • ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك الرجفة ، الفتنة أى الردة والرجعة الى الكفر ومقاتلة المسلمين لأتوها أى لجاءوها وفعلوها • ويضيفان : وما ذاك الا لقتهم الاسلام وشدة بغضهم لأهله وحبهم الكفر وتهالكهم على حزبه »(٧٢)•

(ب) أما ما يحكى مقاتلتهم للمؤمنين وحرصهم على القضاء على شوكتهم ، فتلك الآيتان ٩١ ، ١٠١ من النساء وهما قول الله تعالى : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولائكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » •

وقوله تعالى « واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا » •

وبالنظر فى الآية الأولى نجد أن لفظة « الفتنة » تعنى المقاتلة للمسلمين والغدر بهم والخروج عن العهود والمواثيق التى جرت بينهم لذا نجد الآية تحض على أخذهم وقتلهم عند التمكن منهم وتبشر المسلمين بغلبتهم على هؤلاء الفاتنين الغادرين • يقول الزمخشرى

---

(٧٢) الكشاف ص ٢٥٤ جـ ٣ وأبو السعود ص ٩٥ جـ ٧ •

« ستجدون آخرين — هم قوم من بنى أسـد وغطفان كانوا اذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين فاذا رجعوا الى قومهم كفروا ونكسوا عهودهم ، كلما ردوا الى الفتنة أى كلما دعاهم قومهم الى قتال المسلمين • أركسوا فيها : قلبوا فيها أقبح قلبا وأشنعه وكانوا شرا فيها من كل عدو • « ويضيف حيث ثقفتموهم : حيث تمكنتم منهم • سلطانا مبينا : تسلطا ظاهرا حيث أذنا لكم فى قتلهم» (٧٣) • ويتابع أبو السعود والزمخشرى وكذا أبو حيان مع لفتة يذكرها صاحب البحر حول السين فى ستجدون وأنها ليست للاستقبال بل هى دالة على استمرارهم على ذلك الفعل فى الزمن المستقبل كقوله : سيقول السفهاء وما نزلت الا بعد قوله : ما ولاهم عن قبلتهم(٧٤) • وفى ذلك كشف لسوء طوية القوم وتبصير للمسلمين ورسولهم • وفى ذلك ما فيه من حسن المتابعة وروعة الترشيد والحث على أخذ الحذر •

أما الآية الثانية فالمراد بالفتنة هى القتال والتعرض بما يكره كما ذكر الزمخشرى وأبو السعود(٧٠) وهى تسبق بتطييب لخواطر المسلمين ورفع المشقة عنهم فى الحرب وعند الخوف بقصر الصلاة • ويليها توكيد وحث على أخذ الحذر وذلك من توكيد عداوة الكافرين لهم •

(ج) أما ما يحكى ايذاءهم للمؤمنين — دون دخول فى حرب — والذى يصل الى حد احراقهم بالنار ، فهذه الآيات :

٨٣ من يونس « فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وان فرعـون لعـال فى الأرض وانه لمن المسرفين » •

(٧٤،٧٣) الكشاف ص ٥٥٢ جـ ١ وأبو السعود ص ٣١٤ جـ ٢ والبحر المحيط ص ٣١٩ مجلد ٣ •

(٧٥) الكشاف ص ٥٥٩ جـ ١ وأبو السعود ص ٢٢٥/٢٢٦ جـ ٢

والآية ١١٠ من النحل « ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم » • والآية ١٠ من البروج « ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » •

والآية ٨٣ من يونس وردت فيها لفظة « يفتنهم » بمعنى يعذبهم ويؤذيهم وأسند الفعل الى فرعون اسنادا مجازيا لأنه السبب والآمر لحاشيته وجنده أن يفعلوا بالمؤمنين والمتعاطفين مع موسى وأتباعه يقول أبو السعود « أن يفتنهم — أى يعذبهم • واسناد الفعل الى فرعون خاصة لأنه الآمر بالتعذيب(٧٦) •

والآية ١١٠ من النحل وردت فيها لفظة « فتنوا » بالبناء للمفعول تعنى العذاب والاكراه على الكفر كما حدث مع عمار بن ياسر وأصحابه والآية وان كانت تحكى عذابهم واكراههم على الكفر لكنها مصدرة بمعنى المعية والولاية والنصرة من الله لهم وذلك بدلالة اللام فى قوله « للذين » كما يقول الزمخشرى « ومعنى ان ربك للذين — أى أنه لهم لا عليهم بمعنى أنه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محميا مدفوعا غير مضرور »(٧٧) • وختمت الآية بما يكشف عن مدى لطف الله بهم من جهة ثم بيان أن ذلك بسببه ، صلى الله عليه وسلم يقول أبو السعود « وفى التعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين ايماء الى علة الحكم • وفى اضافة الرب الى ضميره (ص) مع ظهور الأثر فى الطائفة المذكورة اظهار لكمال اللطف به (ص)

---

(٧٦) تفسير أبى السعود ص ١٧٠/١٧١ جـ ٤ وكذا الكشاف ص ٢٤٩ جـ ٢ والبحر المحيط ص ١٨٥ مجلد ٥ •

(٧٧) الكشاف ص ٤٣٠ جـ ٢ •

واشعار بأن افاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته (ص) ولكونهم أتباعا له »(٧٨) .

أما الآية ١٠ من البروج فهى تحكى الى أى مدى يصل الحقد على المؤمنين لاسيما اذا كانوا ضعفاء . اذ وردت فى الآية لفظة « فتنوا» بمعنى عذبوا المؤمنين بالنار وأحرقوهم بعد أن شقوا لهم الأخدود فى باطن الأرض وأشعلوا النار فيما فيه من وقود وألقوا بالمؤمنين والمؤمنات وقد كان فى مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لايمانهم ولكن عز عليهم دينهم ورخصت عليهم أرواحهم ففازوا بشرف الدنيا ونعيم الآخرة وانقلبت النار على أهل الباطل فأحرقتهم وأسلمتهم الى نار الآخرة التى لا يفنى أوارها ولا يهدأ لهيبها(٧٩) .

وبعد أن رأينا كيف أفرغ أهل الباطل حسدهم وحقدهم على أهل الحق بدءا بالنظرة والكلمة ثم بالسيف والقتل حتى انتهى بالاحراق بالنار ها هى ذى الآيات التى تحكى رد أهل الحق ودفاعهم ضد أهل الباطل . وبادىء ذى بدء نقرر أن المدافع عن أهل الحق هو الله تعالى، صاحبهم وراعيهم وهو الحق الحقيق بالمدافعة والمناصرة لأهله ورجاله.

ومن عجب أن يرد الله تعالى بنفس الصور والألوان التى استخدمها أهل الباطل من أذى حسى ومعنوى يتدرج حتى يهلكهم حرقا بالنار ، مع فارق القدر بين العبد والمعبود والمالك والمملوك والخالق والمخلوق، فليس كمثله شىء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم .

والآيات الحاكية خمس آيات : ثلاث منها تحكى البلاء والعذاب

---

(٧٨) أبو السعود ص ١٤٤ جـ ٥ .

(٧٩) راجع تلك المعانى فى الكشاف ص ٢٣٩ جـ ٤ وأبى السعود ص ١٣٧ جـ ٩ والظلال ص ٣٨٧٤ جـ ٣٠ .

والخـــذلان دنيا وآخرة ، وآيتان تحكيان الاحراق بالنار التى لا تعقبها ولا تتلوها جنة •

(أ) والآيات الثلاث هى : ٧١ من المائدة ، ٤١ من المائدة كذلك ثم ٣٣ من الأنعام ، ونصوصها على الترتيب هى :

« وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون»وقوله«ياأيها الرسول لايحزنك الذين يســارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنـــا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عـــذاب عظيم » • وقوله تعالى « ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » •

وبالنظر فى معانى الفتنة فى الآيات الثلاث نجدها تدور حول معنى العذاب والبلاء فى الدنيا والآخرة والخذلان والترك مفتونا وعدم ادراك ما يسهل ادراكه ولعل فى ذلك فتن وايذاء واهانة ما بعدها من اهانات وايذاءات وفتن • ولنستمع الى ما قاله المفسرون يقول الزمخشرى فى الآية ٧١ من المـــائدة « وحسب بنو اسرائيل أنه لا يصيبهم من الله فتنة أى بلاء وعذاب فى الدنيا والآخرة »(٨٠) وتختم الآية بما يبطل حسبانهم وايقاع العذاب بهم من حيث لا يشعرون » « والله بصير بما يعملون » يقول أبو السعود « وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية

---

(٨٠) الكشاف ص ٦٣٤ ج ١ •

استحضـــارا لصورتها الفظيعة ورعاية للفواصـــل(٨١) • ويضيف : « والجملة تذييل أشير به الى بطلان حسبانهم المذكور ووقوع العـــذاب من حيث لم يحتسبوا(٨٢) • أما الآية ٤١ من المائدة فتكشف عن عـــلة خذلانهم وتركهم مفتونين يقول الزمخشرى « ومن يرد الله فتنته — أى تركه مفتونا وخذلانه ،فلن تملك له من الله شيئا — فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئا » •

ويضيف : « أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم لأنهم ليسوا من أهلها لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجع،ان الذين لا يؤمنـــون بآيات الله لا يهـــديهم الله ، كيف يهـــدى الله قوما كفروا »(٨٣) •

أمـــا آية ٢٣ من الأنعـــام فهى تكشـــف معنى الخذلان والترك للمغضوب عليه مفتونا لا يعى ولا يدرك أبسط وأيسر الأشـــياء وذلك تعبيرا عن نتيجة التخلى من الله وترك رعايته وعنايته اذ قوله « ثم لم تكن فتنتهم — أى كذبهم وهم العارفون بأن ذلك كذب لكن الفـــريق يتعلق بالهواء •

يقول الزمخشرى « ثم لم تكن فتنتهم — أى جوابهم الا أن قالوا ••• الخ فسمى فتنة لأنه كذب » • ويضيف موضحا ذلك الملمح « فان قلت كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقـــائق الأمور وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ قلت : الممتحن ينطق بما ينفعه وبمـــا لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشا ، ألا تراهم يقولون ربنـــا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون ، وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه

(٨١،٨٢) أبو السعود ص ٦٤/٦٥ جـ ٣ •
(٨٣) ص ٦١٢/٦١٣ جـ ١ •

وكذا ، ونادوا يا مالك ليقض علينـــا ربك • قـــد علموا أنه لا يقضى عليهم(٨٤) •

(ب) أما الآيتان ١٣ ، ١٤ من الذاريات فهما صريحتان فى أن الله تعالى سيثأر لأحبابه وأتباع شرعه وأنه يقتص لهم من أعدائهم وبالنار حرقا •

اذ تقول الآيتان (يوم هم على النار يفتنون ، ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون » •

والآيتان يحكيهما ربنا اثر سؤال لهم استعجالى واستهزائى طالبين تحديد وتعيين يوم القيامة ، فأجيبـــوا بأنه اليوم ستعرضون فيـــه على النار ويقال لكم ذوقوا ما كنتم تستعجلون وتثبتـــوا مما كنتم به تستهزئون •

ويقول أبو السعود فى الآيتين : « يسألون أيان يوم الدين ـــ أى متى وقوع يوم الجزاء لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة ـــ بل بطريق الاستعجال والاستهزاء ، يوم هم على النار يفتنون ـــ جواب للسؤال أى يقع يوم هم على النار يحرقون ويعذبون »(٨٥) •

وقوله « ذوقوا فتنتكم ـــ فى محل الحال أى مقولا لهم هذا القول ويجوز أن يكون هذا بدلا من فتنتكم أى ذوقوا هذا العذاب »(٨٦) •

اذن كاد أهل الباطل أهل الحق فكادهم الحق وقضى عليهم وأعلى آله وأتباعه •

---

(٨٤) الكشاف ص ١١ جـ ٢ وأبو السعود ص ١٢٠ جـ ٣ •
(٨٥) ص ١٣٨/١٣٧ جـ ٨ •
(٨٦) الكشاف ص ١٥ جـ ٤ •

الجهة الرابعة والأخيرة فى هذا البحث الكريم : الفتنة التى فاقت معناها فى اللغة وشذت عن صورتها فى الواقع .

وواضح أن هذه الجهة ستعرض لآيات وردت فيها لفظة «الفتنة» مقصودا بها أمورا تفوق الأمور التى ذكرت بمعونة الدلالات اللغوية والمعجمية من تعذيب أو أذى أو قتل أو حرق . ولاشك أنها هنا تفوق ذلك كله . والسبب أنها ترد مقصودا بها هز الدين والعقيدة والتعرض المحموم لهما والحرص الأكيد والسريع على زوالهما وأهلهما وهذا ، — ولاشك — أخطر من كل الأخطار وأبشع وأشنع من كل الفتن اذ عند وقوعه وحدوثه يبتلع فى أتونه وناره كل صور الفتنة التى ذكرت ولا يبقى على شىء بل يذهب بالخير كله .

أما عن الفتنة التى تخالف وتشذ عن صورها السابقة ، فما ذلك الا لوقوعها مرادا بها أحياء النفس وأشقاء الروح وأكباد الانسان ومهجة ومتعه فى هذه الحياة ، انها الأموال والأولاد . وذلك لملحظ قرآنى ، ليت الناس يدركونه ويتعاملون معه على وعى وطول أعمارهم ألا وهو عدم استئثار المال والولد لصاحبهما والاستدلال عليه بالكلية حتى يعمى عن كل شىء سواهما وأول هذه الأشياء أو آخرها هو من أفاض عليه بتلك النعم وهاتيك المنح .

والآيات فى تلك الجهة ، ست آيات : أربع منها تفوق المعنى اللغوى للفظة « الفتنة » . واثنتان تخالفان وتخرجان عن المألوف من صور الفتنة (أ) والآيات الأربع هى :

١٩١ ، ١٩٣ ، ٢١٧ من البقرة ثم ٣٩ من الأنفال . وهى على الترتيب :

قول الله تعالى « واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين » . ، وقوله

تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » ، وقوله تعالى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وقوله تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير » .

وبالنظر فى الآيات الأربع نجد أن لفظة « الفتنة » وردت وأريد بها خطر داهم يقضى على الأخضر واليابس ويهدد العقيدة بالمحو والزوال ففى الآيات الأربع تلاق حول أمر محدد وهو ارادة الشرك ونشر الرذيلة اثر محو التوحيد وزوال الفضيلة ولاشك أن ذلك لو وقع فهو أشد من الفتنة وأكبر من القتل فوجب قتالهم حتى لاتكون تلك الفتنة .

« وان المتأمل فى صيغ الآيات الأربع وتراكيبها يجد أمرا دقيقا فحواه : أن آيتين منهما سبكت لفظة الفتنة داخل الأسلوب الخبرى والأخريين سبكت لفظة « فتنة » داخل أسلوب شرطى كانت جوابا واجابة حتمية لسؤال سرى فى مطلع الأسلوب الشرطى وكأن الله تعالى بعد ما أخبر وخبره مصدق ثابت يستجيش النفوس ويثير الحمية ، اذ به بعد ذلك يقدم للنفوس ما يسكن جياشها ويهدىء حميتها ويجوز لها فيما تحتار فيه فيقدم الأسلوب الانشائى المنقذ « وقاتلوهم ... ، وقاتلوهم » وضميمة الأسلوبين فى الآيات الأربع يعطى تكاملا طيبا وصورة ناصعة تامة المعالم فالشرك أخطر شىء فوجب دفعه بالنفس والنفيس . وها هى ذى لقطات من أقوال المفسرين :

فى الآيات الثلاث من البقرة يذكر الزمخشرى أن : « الفتنة أشد من القتل أى المحنة والبلاء الذى ينزل بالانسان يتعذب به أشد عليه من القتل »(٨٧) .

ويذكر فى موضع آخر « حتى لا تكون فتنة : أى شرك »(٨٨) .

ويذكر فى موضع آخر « والفتنة : أى الاخراج من مكة أو الشرك »(٨٩) .

وفى آية الأنفال يقول « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » الى أن لا يوجد فيهم شرك قط . ويكون الدين كله لله — ويضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الاسلام وحده(٩٠) .

والعلامة أبو حيان يقول بافاضة ويجلى بتعبير قوى ورائق ، « والفتنة : الكفر والشرك أو التعذيب الحاصل للمؤمنين ليرجعوا عن الاسلام فهى أكبر جرما من القتل » ويضيف : « والمعنى عند جمهور المفسرين أن الفتنة التى كانت تفتن المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا أشد اجتراما من قتلهم اياكم فى المسجد الحرام » . ويضيف : « وقيل المعنى : والفتنة أشد من أن لو قتلوا ذلك المفتون أى فعلكم بكل انسان أشد من فعلنا لأن الفتنة ألم متجدد والقتل ألم منقض »(٩١) ومن هنا نلحظ أن ورود تلك اللفظة خطير المعنى جليل المدى سواء كان كفرا أو كان تعذيبا فكلاهما ألم متجدد بخلاف القتل فهو ألم منقض كما ذكر أبو حيان .

(٨٧، ٨٨، ٨٩) انظر ص ٣٤٢ ، ٣٥٧ من الكشاف ج ١ .
(٩٠) الكشاف ص ١٥٧ ج ٢ .
(٩١) البحر ص ١٤٩ مجلد ٢ .

(ب) أما الآيتان الأخريان منهما ٢٨ من الأنفال ، ١٥ من التغابن وهما يصوران الفتنة العجيبة الغريبة التى تنبت من المال والولد وهما غايتان عظيمتان ينصب الانسان نفسه من أجلهما مدى طويلا تقول آية الأنفال .. واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم » .

وآية الأنفال ، فى المحتوى كآية التغابن مع زيادة اخراج ذلك المحتوى فى ثوب متيقن وخبر محثوث عليه لخطره وشدة وقعه ونتاجه وفى لفظة « العلم » دلالة خفية — فوق — دلالتها الظاهرة من صدق وثبات الخبر المتيقن من قبل الله تعالى ، — ألا وهى الدعوة اللطيفة الى محاولة ادراك ذلك والالمام بجوانب الفتنة فيما حتى لا تتعكر الحياة ولا تتوقف أو يصاحب الراعى بما لا ينتظر .

هذا فوق كون الآيتين وردت فيهما لفظة « فتنة » منكرة للتهويل والتفخيم بغية أخذ الحذر والتزود بالعلم النافع ليتجنب المرء ذلك ويزيد من خطورة ايرادها منكرة ، كونها واقعة خبرا عن أعز وأغلى ما يجمع أو يملك الانسان وهما المال والولد ، يزيد من خطورتها فوق ذلك — أيضا — كونها واقعة مقصورا عليه لانما فكأن المعنى : ما اموالكم ولا أولادكم الا فتنة فاحذروهما .

وكون الانسان يحذر الشيطان حتى لا يفتنه أو أى عدو له أو نفسه أو من يخالفه فى دينه أو فكره ، كل ذلك ميسور فهمه ومقبول ادراكه ، أما أن يحذر الانسان ولده الذى من صلبه وماله الذى يجمعه فهذا هو ملفت الاستغراب والاندهاش فى التعبير ولما كان ذلك أمرا قاسيا على النفوس والقلوب كانت بلاغة الآية ودقة أدائها حيث عطفت فى كل مرة : محتوى الأجر العظيم من الله ، على ما تقدم من نصيحة غالية . وكأنها تقول ان فقدتم شيئا هنا فما هو أعظم وأفخم مازال

باقيا وموجودا عند الله ، ويفخم من هذا الجزاء تلك الصيغة « أجـر عظيم » بالتنكير والوصف الفخم فوق كونه كائنا ومستقرا وموجـودا عند الغنى الأكرم « والله عنده أجر عظيم » .

وواضح أن ايقاع الفتنة على المال والولد من ايقاع المسبب على السبب فيكون الكلام على المجاز المرسل وفى ذلك ايحـاء مخيف لأن السبب قلما يتخلف عن مسببه . أو أنه لأقل تنبيه وتحريك ينـادى السبب مسببه يقول الزمخشرى « جعل الأموال والأولاد فتنـة لأنهم سبب الوقوع فى الفتنة وهى الاثم أو العذاب ، أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده . والله عنده أجـر عظيم فعليكم أن تتوطوا بطلبه وبما تؤدى اليه هممكم وتزهدوا فى الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد حتى تورطوا أنفسكم من أجلهما »(٩٢) .

تم بحمد الله ، وندعو الله أن ينفعنا وينفع بنا ...

د. يحيى محمد يحيى

---

(٩٢) الكشاف ص ١٥٣ ج ٢ وأبو السعود ٢١ ج ٤ .